

الظواهر الاجتماعية في الوسط النسائي في العصر المملوكي ودور العلماء الدسوفية في علاجها

د. ليث سعود جاسم القيسي،

الجامعة الاسلامية العالمية، ماليزيا

د. إيمان محمد عباس،

الجامعة الوطنية الماليزية

مقدمة

الأمة المسلمة أمة معطاءة وهي كالغيث لا تدري أوله خير أم آخره كما وصف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإن حضارتنا التي قامت على التوحيد من أول يوم لا زالت تعطى للبشرية جمعاء الكثير، فالمنهج الرباني هو المنهج الذي يستطيع أن يأخذ بيد الإنسان إلى الاطمئنان في خضم القلق النفسي وعدم الاستقرار الاجتماعي و الصراع المتنوع الأسباب، وهو ما تدل عليه الأحداث التي تمر بها البشرية يوميا. فحضارات قد اندثرت ، ودول قد تشئت ، ومناهج للفكر قد ألغيت ولا زال كتاب ربنا ينطق بالحق "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا " {الإسراء : 9}.

وقد أسهم علماؤنا في جميع تخصصاتهم في بناء الكيان الحضاري للأمة والذي لا زال يشهد بعظمة هذا الدين ، ولم ترتفع لهذه الحضارة

الرايات والمظاهر إلا يوم أن كان الإنسان سائرا على جادة الحق مستهديا بنور الشرع فتتورت روحه وتفتق ذهنه فكان مشكاة لنور الحق يسلكه في قلوب الخلق وأرواح الأمة فيحيها بالقرآن .

وهذا البحث يعرض لنا جهود علمائنا الربانيين الذين جمعوا بين المادة والروح وكانوا هداة للأمة في خضم التحديات فتنوعت أنشطتهم وتبادلوا أدوارهم في جوانب الإصلاح الاجتماعي والدعوة إلى الله .

وقد نصصت في العنوان على لفظ " العلماء الصوفية " وليس " علماء الصوفية " قاصدا بذلك العلماء الذين تحقّقوا بالإيمان العميق ، والفهم الوسطي الدقيق ، والعمل المتواصل لخدمة هذا الدين في جميع ساحاته ، وجمعوا بين الحقيقة والشرعية وقد عبر عن ذلك الشيخ السري السقّطي (ت253هـ) موجها ومرشداً للجنيّد البغدادي (ت298هـ) بقوله¹ : "جعلك الله طالب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا طالب حديث" وذلك لضبط طريق السلوك إلى الله بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لأن المنهجية الصحيحة لا بد أن تكون منضبطة بالكتاب والسنة مصداقا لقوله تعالى " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " {الحشر:7}.

وقد شرح الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) كلام السري السقّطي بقوله² : "أشار إلى أن من حصل العلم ثم تصوف أفلح .. ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه...!!" وقد رسخ ذلك الشيخ الإمام الجنيّد البغدادي هذا المفهوم بقوله³ : "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة" ويقول كذلك: "من ادّعى أن له مع الله حالا أسقط عنه التكليف وهو حاضر العقل فهو كاذب ، ومن يسرق ويزني أحسن حالا ممن يقول ذلك .."⁴ وذلك لحفظ التصوف من المغالاة أو الشطط حتى لا يختلط علينا الأمر بين

الصوفية الخلص، ومن هم أدعياء التصوف ، فلا باطن بدون ظاهر ، ولا حقيقة بدون شريعة. بل الظاهر والشريعة أولاً وقبل كل شيء ثم الباطن والحقيقة المؤسسة على الشريعة ⁵.

والعصر المملوكي (648هـ - 923هـ = 1250م - 1517م) مرحلة من مراحل الحكم الإسلامي الذي رفع الراية في مصر والشام يوم سقطت بغداد سنة: (656هـ - 1256م) ، ولكن عندما تركن نفوس البشر إلى الأرض ويتنازعها الترف كان مصيرها السقوط ، وهذا ما أصاب حكم سلاطين المماليك في أواخرهم وتلك سنة في الكون سنّها الله تعالى "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " { هود: 117 } . فعند كل هبوط للخط البياني الأخلاقي والاجتماعي أو السياسي يصطنع الله لهذه الأمة الناصحين والمصلحين الذين يرفعون أصواتهم إنذاراً للأمة وبياناً لخطورة المسار كما فعل الكثير من أئمة الهدى في النصيح للأمة لتتكشف الغمة ، أمثال: الجنيد البغدادي والإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) ، والشيخ الجيلاني (ت562هـ) ، والشيخ العز بن عبد السلام (ت660هـ) ، وشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية (ت728هـ) ، والشيخ الشاذلي رحمهم الله وغيرهم من الأئمة .

وفي عصر المماليك بقسميه كان هناك من يسير على نفس الطريق، وظهر بينهم نماذج وقدوات في الدعوة والإصلاح وبخاصة إصلاح الوسط النسائي فقد تخصص في الدعوة في هذا الوسط جمهرة من جهابذة الفقهاء من الرجال وكثرة من النساء ، ولم تكن العالمات الزاهدات بالوعظ فقط بل أنشأ بعضهن المؤسسات المتخصصة بتعليم النساء القراءة والكتابة ، وتلاوة القرآن وعلم الحديث ، بل وتدريبهن على الأعمال اليدوية ، والبعض الآخر

من النساء كنّ يشجعن نساء الأمراء وميسورات الحال من أغنياء النساء ويحثنهنّ على بناء المدارس والربط والخانقاهات الخاصة بالنساء، ومن هؤلاء العالمات الصالحات على سبيل المثال لا الحصر :

- الشيخة الصالحة زينب بنت أبي البركات (ت 714هـ) البغدادية الفقيهة الزاهدة سيدة نساء زمانها كانت وافرة العقل والعلم المشرفة على الأرامل وقد انصلح بها نساء دمشق ومصر⁶،
- و أم القاسم (860هـ) كانت متقنة في تعليم البنات وكان لها مجمعا للنساء المنقطعات والأرامل⁷،
- وفائدة بنت محب الدين كريم الدين القرشي قاضي الفيوم ، كانت تلقب بالشيخة واشتهرت بالوعظ بين النساء⁸ ،
- وهاجر⁹ (ت 874هـ) بنت محمد بن ابي بكر الملقب بالشرف أبي الفضل القدسي الأصل القاهري الشافعي ، كانت أسانيداً أعلى أسانيد أهل عصرها ..!! وتزاحم عليها الطلبة من الرجال والنساء ، وهي من شيخات الإمام السخاوي(ت902هـ) .

ومن العلماء العارفين الذين اشتهروا بالدعوة والوعظ وسط النساء على سبيل المثال : ابن الجوزي (ت 656هـ)¹⁰ وابن قيم الجوزية (ت 751هـ)¹¹ ، وتقي الدين الحصني (ت 829هـ)¹² ، و ابن الرسام الحموي (ت844هـ)¹³ الذين وعظوا وألفوا كتباً في وعظ النساء وتعليمهن وغيرهم .

أهمية البحث :

وأهمية هذا البحث في أنه يكشف عن حقيقة أغفلتها المصادر الحديثة وهي: مكانة المرأة في المجتمع المسلم.. وإبراز دورها في بناء الحضارة الإسلامية ، ويظهر البحث كذلك بأن علماءنا لم يغفلوا أهمية دور المرأة وحركتها في المجتمع لأن القرآن قد بين هذا الدور في قوله تعالى : " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر... الآية " { التوبة : 71 } ، وقوله تعالى : " أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض " { الآية { آل عمران : 195 } وأوصى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع التي لخص فيها تعاليم الإسلام الأساسية وكان للنساء فيها بنداً خاصاً..!! وهو : " استوصوا بالنساء خيراً ... " ¹⁴

مشكلة البحث

سار المسلمون على هدي القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل عصورهم وإلى يومنا هذا إلا من أفرط أو فرط. واختار البحث عصر المماليك لأنه عصر الأحداث الجسام فضلاً عن وصفه بالتخلف وقد أطلق عليه عصر الظلام من قبل أعدائه وبعض أبنائه..!! وهو تعميم غير دقيق حيث أغفلت حركة الأمة والمجتمع ، ومن ثم التباين بين مسار الخط البياني السياسي من جهة والخط البياني الحضاري العلمي والثقافي من جهة ثانية ، ولهذا فالبحث محاولة للكشف عن جهل من يتداول مصطلح عصر الظلام الذي يليق بالعالم الأوربي وقرونه الوسطى لا بالعصر المملوكي !!.

مناهج البحث المتبعة :

وقد اتبعت مناهج متنوعة في هذا البحث :

- المنهج التاريخي الذي تتبع الظاهرة وبخاصة في العصر المملوكي ولتبيين دور الدولة، ودور المؤسسات العلمية والعلماء والعالمات في العناية بالمرأة.
- المنهج الوصفي: الذي قام بوصف الظواهر العامة والظواهر الإيجابية المتعلقة بالمرأة .
- المنهج التحليلي الذي من خلاله يمكن مناقشة الأفكار، وتحليل الظواهر، واستنباط النتائج.

محاور البحث :

والبحث الذي بين أيدينا يتكون من :

المحور الأول : ألقى نظرة تحليلية فيه على أوضاع المجتمع المملوكي .

المحور الثاني : دور المرأة في المجتمع المملوكي في مصر : ويتحدث عن الدور الإيجابي والسلبي للمرأة والنشاط التربوي في هذا المجال.

المحور الثالث: دور العلماء الصوفية الدعوي من الرجال والنساء في الوسط النسائي، وأعطى هذا المحور فكرة عامة عن طبيعة العصر وتحدياته، وألقى نظرة على جهود العلماء الصوفية ودورهم بالتخصص في دعوة النساء.

ثم الخاتمة : وتتضمن النتائج والتوصيات .

المحور الأول:

نظرة تحليلية لأوضاع المجتمع المملوكي

كانت دولة المماليك هي وريثة الخلافة العباسية بعد أقول نجمها في بغداد إثر الهجمة المغولية المدمرة التي ذهب ضحيتها آلاف الناس من العلماء وغيرهم فضلا عن حرق الكتب و إتلافها ، فكان للدولة المملوكية الفتية الدور المميز في إيقاف المد المغولي حيث لم يستطع أن يدخل الشام وهزم مرتدا على أعقابه في معركة عين جالوت سنة (659هـ) .¹⁵

وكذلك كان الفضل لهذه الدولة التي حكمت ما يقارب من ثلاثة قرون قبل أن تهزم فلول الحروب الصليبية من عكا ومن بيروت ومن قبرص وصارت الأخيرة المعقل الأخير للحضارة الإسلامية ووارثة للخلافة العباسية. وانتقل مركز الثقل العالمي للغة العربية وآدابها وغيرها من العلوم من العراق إلى مصر".¹⁶

وقد نال الحياة العامة انتعاش على ضوء هذه الانتصارات في جميع جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية حتى غدت دولة المماليك مرهوبة الجانب وأقبلت الدول في العصور الوسطى تخطب ودها فتزدد عليها السفراء والمبعوثون والرسل من ايطاليا والبنديقية وقبرص وجنوة، وانتعشت الحركة التجارية ، وهذا النمو هو نتيجة تراكمية للإصلاحات والأعمال الفذة التي قام بها الأيوبيون قد آتت ثمارها في العصر المملوكي ، فضلا عن الإضافات والتطويرات التي حصلت على يد بعض المماليك إلى جانب ازدياد عدد السكان وبخاصة في القرن التاسع لتصبح مصر المركز التجاري بين الشرق والغرب¹⁷.

وفي الجانب الآخر فإن أي نمو اقتصادي ترافقه ظواهر سلبية وبخاصة الترف الذي يفرز أمراضاً اجتماعية واقتصادية وسياسية، وبالأخص عندما يلي الأمر أمراء ضعاف أو من فيهم تسلط على الأمة، فتطفو فوق سطح الحياة اليومية ممارسات خاطئة ، بدأ الحال يسوء في أواخر القرن التاسع حيث ظهرت هذه الظواهر الاجتماعية في عصر المماليك الشراكسة البرجية الذين حكموا للفترة : (784هـ-922هـ / 1382 م-1516م)¹⁸

أهم سمات المجتمع المملوكي وظواهره أولاً: التركيبة الاجتماعية للمجتمع المملوكي وطبيعتها:

وصف المقرئ شرائح المجتمع المملوكي الاجتماعية في مصر وقسمها إلى سبعة أقسام وهي¹⁹:

1. أهل الدولة الحكام المماليك (وأولاد الناس) وهم أبناء المماليك.

2. أهل اليسار من التجار وأولوا النعمة من ذوى الرفاهية.

3الباعة أو متوسطوا الحال من التجار والسوقة.

4الفلاحون وسكان الريف والقرى.

5الفقهاء وطلاب العلم وأهل التصوف، وأطلق

عليهم الفقراء (المتفرغون للعلم والعبادة).

6أرباب الصنائع وأصحاب المهن.

7الذين يتكفون الناس (الشحاذين والمتسولين).

وكانت الطبقتان الأولى والثانية تتميزان بالرفاهية العالية والبذخ المفرط ولا سيما وأن الحالة الاقتصادية قد انتعشت كما ذكرنا ، فقد كانت هاتان الشريحتان تحوزان المدخول الأكبر من المال ، الأولى عن طريق الحكم والإدارة والثانية عن طريق التجارة.

وقد ظهرت شريحة أخرى في عهد المماليك البرجية أو الشراكسة الملقبون بـ (الأجلاب) وهم المماليك الذين تخطوا سن البلوغ على خلاف ما كانوا يفعلون سابقا حينما كانوا يأتون بالمماليك صغارا ويربونهم فينشأوا محبين لسادتهم ، فتخلخلت الأواصر بين الأجلاب وبين السلاطين والأمراء مما أدى إلى كثير من المشاكل وحوادث الشغب والاعتداءات التي وقعت في شوارع القاهرة ، لأن هؤلاء (الأجلاب) كانوا يعتدون على الناس وعلى النساء بصورة خاصة مما أوقع حالة من الرعب²⁰ في المجتمع.

ثانيا : جدلية تقدم العلم و الأوضاع السياسية :

استغرب بعض من عايشوا تلك السنين أو من كتبوا عنها ظاهرة العلاقة بين الازدهار العلمي والفساد السياسي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، حيث بدأ الخلل والانتكاس يظهر على الخط البياني السياسي، كظاهرة الصراع على السلطة التي كانت على أشدها لدرجة أن بعض الزعماء أو الأمراء لم يكن ليديم في منصبه لأكثر من شهر ، بينما كانت هناك فترات استقرار يحكمها سلاطين أقوياء ذوي عقل وإنصاف أمثال :

برقوق (784-801هـ)، وبرسبائي (825-841هـ) وجقمق 842-

857هـ).²¹ ومع هذا كله فإن الخط البياني للنمو العلمي والفكري كان في

صعود فكان هذا العصر زاخرا بكثرة العلماء من الرجال والنساء كما سنرى، بل وتنوّع الانتاج العلمي فضلا عن غزارة التأليف !! .

ويبدو أن الذي ساعد على ذلك هو الحصيلة التراكمية التي لم تتكون في يوم وليلة وإنما كانت ثمرة لجهود العلماء في العصر الأيوبي من جانب كما ذكرنا، ومن جانب آخر لاهتمام المماليك أنفسهم ببناء المدارس والرباطات ، وتشجيعهم العلماء من شتى المذاهب ، وقد شهد لهم ابن خلدون بذلك في قوله:

" أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليتهم ملوك بني أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لإقامة رسوم الفقهاء (أهل التصوف) في التخلق بأخلاق الصوفية السنية في مطارحة الأذكار ونوافل الصلوات.. واقتدى بسنتهم من تحت أيديهم ... فكثر المدارس والخوانق بمدينة القاهرة... وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة ".²²

"وأصبحت مصر مهجراً للعلماء من العراق والشام والأندلس التي كانت المحنة حلت في ديارهم وبخاصة العراق والأندلس، فالأولى بسبب التتار، والثانية بسبب الأسباب وهجمتهم".²³

وقد ازدهرت النهضة العلمية بذلك وانتعشت المدارس وبخاصة الأزهر الذي كان يفد إليه الطلاب من كل مكان ، وكان مهجراً لاستقبال الطلاب في رحابه الذي تحيط به أروقة سكن الطلاب من كل القوميات من أنحاء العالم الإسلامي ، وتجرى عليهم المكافآت الشهرية من ريع الأوقاف الخاصة بالأزهر.²⁴

في تلك العهود برز علماء عظام في تاريخنا مثل : ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، والمقريري المؤرخ والاقتصادي والفقهاء (ت845هـ)، وابن رجب (ت795هـ) المحدث والفقهاء، وابن كثير المفسر والمحدث المؤرخ (ت774هـ)، وابن منظور (ت711هـ)، وابن إياس (ت908هـ)، وابن تغري بردي (ت874هـ). وابن حجر العسقلاني (ت852هـ) ²⁵. وبرع من النساء العشرات بل المئات في العلوم الشرعية وبخاصة علم الحديث وقد عد ابن حجر في شيوخه ثمانين شيخاً منهن المقرئات والفتيات والطبيبات". ²⁶ وسيأتي تفصيل ذلك .

ونشطت بجانب ذلك حركة بناء المدارس مثل: الصالحية، والقمحية، والأشرفية، والناصرية، والتي تنسب كل واحدة منها إلى سلطان من سلاطين المماليك". ²⁶ بل كان الميسورون من النساء والرجال يسهمون في هذا العمل العلمي النافع كما سنبين .

ثالثاً : عصر الموسوعات :

يعد عصر المماليك من أغزر العصور الإسلامية إنتاجاً علمياً في جميع جوانب المعرفة فما من فن من الفنون أو لون من ألوان الثقافة إلا وطرقه علماء هذا العصر ، ولذلك أطلق عليه (عصر الموسوعات) حيث ظهرت فيه موسوعات تاريخية- وأدبية- وفقهية- وحديثية- وجغرافية- ومعاجم اللغة) والحقيقة أنك إذا ما تصفحت أي موسوعة لوجدتها تتضمن علوماً شتى قد لا يدل عليها العنوان. ²⁷ وإن لظهور هذه النفائس في العصر المملوكي ليدل على ثراء هذا العصر بالانتاج العلمي ، فكان عصر عطاء وابتكار وليس عصر جمود وتقليد ويكفيه فخراً بروز الظاهرة الخلدونية ورائدها المؤرخ

الفقيه مؤسس علم الاجتماع ، ولم تكن هذه الموسوعات منصبة في موضوعاتها على المجتمع المصري فقط بل كانت تتناول البيئة الإسلامية بعامة منطلقاً من مفهوم علمية الإسلام ووحدة الأمة .

ومن أهم هذه الموسوعات على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : لسان العرب : وهو أغنى قاموس موسوعي عرفته اللغة العربية حيث ضم ثمانين ألف مادة ، ضمنها المؤلف العلامة المحدث الفقيه جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت 711هـ) الذي يتصل نسبه إلى الصحابي رويغ بن ثابت الأنصاري²⁸، وقد طبع عدة طبعات أشهرها :طبعة المكتبة الأميرية بالقاهرة 1300هـ - 1882م) وهي في عشرين جزءا بعشرة مجلدات والمشهورة بطبعة بولاق . و طبعة دار صادر ببيروت (1374هـ - 1955م)في خمسة وستين جزءا . و طبعة دار المعارف دار النشر بمصر في ستة مجلدات كبيرة قامت بتحقيقه وترتيبه على حروف المعجم لجنة من الأساتذة وهم : عبد الله علي الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، وسيد رمضان أحمد ، وانتهى التحقيق في (1401 هـ - 1981م)²⁹. وقد احتوى إضافة إلى المادة اللغوية مواد في علوم القرآن والحديث والتاريخ والسيرة والجغرافيا .

ثانياً : نهاية الإرب في فنون العرب : للنويري أحمد بن عبد الوهاب

القرشي التيمي (ت 733هـ) نسب إلى قرية نويرة بني سويف بمصر ، وموسوعته تضم ألوان المعرفة والأخبار التاريخية والأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية ونماذج من أنظمة الحكم ، والظواهر الكونية ، والأحداث

الغريبة وجمع لنا مادة تاريخية لاتجدها في مصادر أخرى وينقل عن مصادر مفقودة ، وقد بلغ عدد مجلداته أكثر من خمس وعشرين مجلدا واشترك في تحقيق أجزائه مجموعة كبيرة من المتخصصين³⁰.

ثالثا : مسالك الأبصار في الأقطار والأمصار : لابن فضل الله

العمرى (ت749هـ) شهاب الدين أحمد بن يحيى القرشى العمرى ، والكتاب موسوعة جغرافية قيمة فبالإضافة إلى المادة الجغرافية فتتضمن مادة آثارية غنية يذكر المساجد والكنائس والديارات ، والأجناس ينتضمها أسلوب أدبي سلس جميل وهي في أكثر من عشرين مجلدا³¹

رابعا : صبح الأعشى في صناعة الإنشا : مؤلفها أبو العباس

القلقشندي أحمد بن علي القيسي (ت821هـ- 1418) ، وكان يعمل في دار الإنشاء وهو بمثابة وزارة الخارجية وكانت وظيفته استقبال الرسائل والمكاتبات التي ترد إلى السلطان من داخل الطولة وخارجها ، أو تصدر عن الديوان من المكاتبات والأوامر السلطانية ، ولكنه في نفس الوقت موسوعة شاملة وسجل ضخم للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في العصور الوسطى ، وقد أبرز القلقشندي الجوانب الحضارية المشرقة التي زخرت بالتقدم العلمي بجميع جوانبه في العصر المملوكي على خلاف ما يشاع حوله من التخلف العلمي وهذا جهل مركب اومتعمد³².

خامساً : المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار : ومؤلفها المقرئ

نقى الدين أحمد بن علي المقرئى القاهري (ت845هـ) : وهي موسوعة

في تخطيط المدن ، وتتضمن معلومات جغرافية وأدبية وتاريخية ، عن مصر خاصة وعن غيرها بصورة عامة .

ومن العلماء الموسوعيين أيضا في علم الحديث والرجال الإمام أحمد بن حجر العسقلاني(ت852هـ) في كتابه فتح الباري ،وكتابه الاصابة، وتهذيب التهذيب وغيرها ، والإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت902هـ) المعروف بكتابه الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، والإمام عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ) وغيرهم .

المحور الثالث :

المرأة في المجتمع المملوكي

مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي :

البحث التاريخي رافد مهم في رصد حركة تفاعل القيم والمبادئ مع واقع الحياة وتنميتها ، فهو يزودنا بنماذج تطبيقية في كل زمان ومكان ، ولكن قد يطغى على واقع اجتماعي ما بعض العادات أو التصرفات المخالفة لأصالة هذا الدين ومصدريته وتحسب على الإسلام وليس الأمر كذلك ، فالمسلمون هم الذين يتغيرون إفراطا أو تفريطا ، الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر...!!!

و لما كان العصر النبوي هو العصر القدوة في إنزال الإسلام على الواقع وتحققت فيه حركة الإنسان المنضبطة بضوابط الشرع ، لذا فلا نستطيع أن نفهم النظام الاجتماعي الإسلامي ودور المرأة في مجالات الحياة في ضوء تعاليمه إلا من خلال التوجيهات النبوية والسيرة المحمدية وتحرك

المرأة المسلمة على هديها في أي حقبة أخرى ، وفي جميع مجالات الحياة كطلب العلم، والنشاط الاجتماعي والرعاية الاجتماعية في الأفراح أو الأتراح، وفي الجد والمرح، وفي القتال أو الإنشاد، مما يعطينا صورة وضاعة عن العصر النبوي تتمثل مثالا يحتذى ونموذجاً يطبق في عالم الواقع، وبالتالي فنحن نقيس على عصر النبوة مفاهيمنا وتطبيقاتنا فالنساء "شقائق الرجال"،³³ كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في الخلق والتكليف ومنزلة التكريم الإنساني. وأوصى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "استوصوا بالنساء خيراً"³⁴ وقرن المنهج الرباني بين حركة المرأة وحركة الرجل في تنمية المجتمع وبناء الحضارة وجعل مظاهر هذه الحركة متنوعة، فمنها ما هو خاص بالرجل، ومنها ما هو خاص بالمرأة، ومنها ما هو مشترك بينهما.³⁵ ومن أمثلة ذلك :

1. تحملت المرأة في اليوم الأول مسؤولياتها الدعوية فكانت خديجة (رضي الله عنها) نصف الإسلام حيث آمنت أولاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعمت الدعوة بمالها وعاطفتها، وتحركت بالدعوة وسط النساء، ثم بنات النبي عليه الصلاة والسلام اللاتي طُلّقْنَ من أول يوم بسبب الدعوة، وتحملت المرأة المسلمة العذاب بأشكاله : فأول شهيدة سمية (رضي الله عنها) وزنييرة ذهب بصرها بسبب التعذيب وردّه الله عليها كرامة لها وتحدياً للمشرّكين ، والمهاجرات إلى الحبشة مثل أسماء بنت عميس ، ورقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، والمهاجرات إلى المدينة وعلى رأسهن أم كلثوم بنت عقبة أول قرشية تهاجر وهي بنت أعتى أعداء الإسلام وقد

شاركت في الغزوات محاربة وممرضة. وأول مستشفى³⁶ في الإسلام مديرتة امرأة وهي ربيعة الأسلمية (رضي الله عنها) طلب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تمرض سعد بن معاذ في خيمة بساحة المسجد، ومنحها رسول الله غنيمة رجل لخدماتها الطبية التي قدمتها في خيبر .

2. وأول جمعية نسائية كانت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورئيستها أسماء بنت يزيد بن السكن كانت تقول: "كنا نكون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه وصدرًا من خلافة عمر رضي الله عنه في المسجد نسوة قد تخاللن وربما غزلت بعضنا الخوص..."³⁷

3. وطلبت النساء تدريساً خصوصياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم "قسنّ لنا في ذلك جواز تدريس النساء والمحاضرة لهنّ - تقول النساء: "غلبنا عليك الرجال ..! يا رسول الله فاجعل لنا يوماً من نفسك فخصص لهنّ يوماً يلقينه فيه فوعظهنّ وأمرهنّ " وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: " اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا... فاجتمعن فأتاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهن مما علمه الله..."³⁸.

4. وأسهمت المرأة في التبرع للفقراء والتبرع للدولة الإسلامية بالأموال المنقولة وغير المنقولة ، وقد تبرعت رملة الأنصارية ببيتها داراً للضيافة للدولة الإسلامية وكان يتسع لستمائة شخص ويستقبل فيه رسول الله الوفود"³⁹.

5. وهناك النشاط الترفيهي من الإنشاد في الأعراس بعيدا عن الرجال، وضرب الدفوف، وتخصصت بعض الصحابيات بتزيين النساء في الأعراس وغيرها ، وكانت أخت سيدنا عثمان تقوم بتزيين العروس⁴⁰ ومنهن من يعلمن تحفيظ القرآن مثل أم ورقة الملقبة بالشهيدة. ومنهن من يُعلمن الكتابة مثل الشفاء بنت عبد الله طلب منها رسول الله أن تعلم حفصة رضي الله عنها الكتابة.⁴¹

النشاط العلمي للمرأة في العصر المملوكي :

شاركت المرأة المسلمة مشاركة فاعلة في الحياة الثقافية ولمعت في أفق المعرفة الإسلامية وحضارتها نجوم من المحدثات والفتيات والنحويات، والقارئات والمفسرات، والطبيبات، وكانت هناك ظواهر علمية متميزة مثل :
أولاً : رواية الرجال عن النساء : وكانوا يفتخرون بطلب العلم على عالمات عصرهم في كل العلوم وقد عدّ لنا كثير من المشهورين من العلماء أسماء شيخاتهم وصنفوا في ذلك التصانيف ، وهناك من يعد كتاب ابن حجر "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" مصدراً مهماً في ذلك، وقد ترجم فيه لـ (170 عالمة ومحدثة) وغيرهم ، حتى عد كتابه موسوعة في ذلك للقرن الثامن . وترجم لنا السخاوي لألف امرأة في معجمه الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وغيرهن كثير وكان كبار الفقهاء والمحدثون يفتخرون بأنهم قد رَووا عن الشهيرات اللاتي أجزن لهن ، وكان الطلبة يتزاحمون على الرواية عنهن. وقد بلغ الكثير منهن المنزلة العلية في الرواية والاسناد العالي ، وحصل كثير منهن على لقب (المسندة) أو (مسندة زمانها) .. فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم مكانة المرأة وبخاصة إذا كانت محدثة أو فقيهة بل كان أحمد ابن حجر يمازح زوجته فيناديها بالشيخة ، وكانت تحدث

الرجال بحضوره...!!! ، ومن بين هؤلاء جمهرة من الصالحات وقد عددن في سلك كبار المحدثات مثل:

- المسندة المكثرة ست العرب بنت محمد بن شيخ فخر الدين المقدسية (ت 767هـ)⁴²

- مريم بنت أحمد قاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعي (ت 805هـ)⁴³

- المسندة المعمرة فاطمة بنت خليل بن أحمد المقدسي (ت 838هـ)⁴⁴

- الشيخة المسندة الصالحة الأصيلة أم أبيها (ت 783هـ)⁴⁵

- الشيخة المسندة أم الحسن فاطمة بنت الإمام شهاب الدين العمري الحرازي (ت 783هـ)⁴⁶

- سلمى بنت محمد بن الجزري القارئ⁴⁷ عالمة في القراءات العشر حافظة عالمة بالعربية.

- أم هانئ مريم بنت فخر الدين محمد الهورينية (ت 871هـ)⁴⁸ أتقنت العلوم وبرعت في الحديث.

- باي خاتون بنت أبي الجيش (ت 864هـ) أقرأت الحديث في مصر والشام.⁴⁹

- عائشة بنت علي بن أبي الفتح ست العيش (ت 840هـ)⁵⁰ عالمة جليلة مشاركة في سائر العلوم والفنون.

- أسماء بنت الفخر إبراهيم (708هـ) كانت تلقن النسوة القرآن.⁵¹

- أم الحسن بنت أحمد بن عبد الله الهاشمي ، قرأت صناعة الطب⁵² على والدها وكانت أديبة .

ثانياً: ظاهرة تأليف العلماء المشهورين معاجم وفهارس يترجمون فيها لشيخاتهم ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مكانة المرأة ودورها في الحياة عامة والعلمية بخاصة ، مثل :

- معجم النسوان لابن كثير (ت 571هـ) حيث ترجم لثمانين من شيخاته⁵³
- وجمع أحد طلاب الإمام الحافظ أبو طاهر السلفي (ت 576هـ) معجماً لشيخاته.⁵⁴
- الإمام ابن الجوزي (ت 597هـ) روى عن ثلاث شيخات.⁵⁵
- الحافظ المنذري (ت 656هـ) روى عن 33 شيخة.⁵⁶
- الإمام الذهبي (ت 748هـ) روى عن جماعة من النساء ذكرهن في معجم شيوخه.⁵⁷
- الإمام ابن حجر (ت 852هـ) أحصى له تلميذه السخاوي 54 شيخة.⁵⁸
- العلامة ابن فهد أخذ عن (130 محدثة) ذكرهم في كتابه (معجم الشيوخ)⁵⁹، وعائلة ابن حجر تعدّ نموذجاً للعائلات العلمية⁶⁰ بكل أفرادها وهي كالاتي :
- زوجة ابن حجر واسمها أنس بنت القاضي كريم الدين عبد الكريم⁶¹ ناظر الجيش ، سمعت الشيخ عبد الرحيم العراقي والعلائي ولمع اسمها، وأخرج لها الإمام السخاوي أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً.
- ابنته زين خاتون (833هـ) توفيت في وباء الطاعون، سمعت عن الإمام العراقي والإمام الهيثمي.⁶²

- فرحة بنت ابن حجر العسقلاني (ت828هـ) ماتت بالطاعون،
أسمعها والدها من مشايخه.⁶³
- ابنتي ابن حجر فاطمة وعالية (ت819هـ) توفيتا بالطاعون
استجاز لهما والدهما من مشايخه.⁶⁴
- ابنته رابعة (ت832هـ) سمعت الإمام المراغي بمكة وأجاز لها
الشاميون والمصريون ، توفيت بالطاعون.⁶⁵
- ست الركب بنت علي أخت ابن حجر (ت798هـ) كاتبة قارئة⁶⁶
أكثرت مطالعة الكتب، وحفظت القرآن ، وكانت خطاطة بارعة.
- بنت أخته موزة (ت 850هـ) أخذت عن خالها وأخذ عنها الإمام
السخاوي.⁶⁷

ثالثا: المظاهر السلبية في المجتمع النسائي المملوكي :

لقد واجهت دولة المماليك تدهورا عاما في أواخرها ، وبدأت تتضح معالمه في حركة المجتمع كبروز الفساد السياسي والمالي والأخلاقي، فمصر والشام لم تنعما بالاستقرار السياسي إلا عند وجود سلطان قوي وصالح، وهذه الظاهرة بدأت يوم أن بدأ المماليك في الحكم سنة (648هـ/1250م)، وتحديدا يوم أن تولى فخر الدين أيبك زوج شجرة الدر الأمور لأن المماليك قوة عسكرية ضاربة ولكن لم يكن لهم ممارسة سياسة فانعكست تربيتهم العسكرية على معالجة الأمور، فكثر التمردات والانقلابات وبخاصة في فترة المماليك البرجية منذ سنة (784هـ-923هـ/1382-1517م) ، التي ندرس فيها ظاهرة الدعوة والتأليف المتخصص في الوسط النسائي.⁶⁸

أثر الخلل السياسي في الوضع الاجتماعي :

وبسبب تباين التعامل السياسي أو تولى السلاطين الضعفاء أدى إلى أنواع الفساد الإداري والمالي وعلى رأسه الرشوة، والاحتكار، وكثرة الضرائب ، إضافة إلى الأزمات المتنوعة التي واجهت البلاد مثل زيادة الأسعار و تدهور الزراعة ، وكذلك تغيير الأوربيين طريق التجارة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، مما أدى إلى توقفت التجارة عبر سيناء مصر والبحر الأحمر ، و التي كانت خطة أوربية لضرب دولة المماليك خلال سيطرتها على البحر الأبيض والأحمر ، ولا ننسى ظاهرة التضخم المالي بسبب تغيير قيمة الدينار المملوكي واستخدام الدينار النحاسي بدل الذهب.⁶⁹

وقد أسهمت عوامل أخرى في تخلخل الوضع الاجتماعي وهي الأمراض والأوبئة مثل الطاعون الذي تكرر حدوثه في سنوات عديدة عام (749هـ)، و عام (796هـ)، و عام (833هـ)، و عام (867هـ) ، الذي أدى إلى التدهور السكاني وأعقبته المجاعات، والذي زاد الأمر تعقيدا في مصر دون الشام نقص مياه النيل ، فاستغل ذلك التجار في رفع الأسعار ، والتحكم في أرزاق الناس .

ومن جانب آخر انتشار الفوضى وعدم الأمان حيث بدأ المماليك في الصراع بينهم ، وكذلك القبائل التي بدأت بمهاجمة المدن للسلب والنهب حيث أثر ذلك على أمن الرعية واستقرار البلاد ، وقد درس المقرئ في هذه الفترة ، وكتابه "السلوك لمعرفة دولة المملوك"⁷⁰ وثيقة حية لرصد الحالة السياسية والاجتماعية ، أما كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" فقد شخص فيه تدهور الجوانب الاقتصادية والمعالجات الخاطئة التي وقع فيها المماليك سياسيا واقتصاديا ..

كل هذه المظاهر المجتمعية كانت دافعا ومشجعا على النشاط الدعوي المتخصص في الوسط النسائي، والتي وكانت تشكل بؤرا للفساد الأخلاقي وأسبابا للاعتداء على النساء الصالحات ومن هذه الظواهر نذكر :

(1) الخروج المفرط إلى الأسواق:

الخروج إلى الأسواق أمر مباح وإن كانت هناك أحاديث تشير إلى كراهة البقاء الطويل في الأسواق وبخاصة إذا لم تكن هنا حاجة ضرورية ربما لأنها قد تتحول إلى مضیعة للوقت بدلا من الانشغال بما هو مفيد علميا أو اجتماعيا مع الأسرة والأصدقاء ، وفي العصر المملوكي كانت الأسواق تُعدُّ مكانا للتنزه بالنسبة للنساء وقضاء الأوقات للتفرُّج على المعروضات من الأقمشة وغيرها. وكانت النساء يمثلن الأغلبية من رواد الأسواق ويزداد العدد في بعض المواسم كمواسم رمضان ، أو خميس العهد وهو عيد نصراني كان جميع المصريين يحتفلون به ، وفي هذا اليوم كانت النساء يخرجن لشراء البخور والخواتم ولا يمكن أن يمر أحد في السوق في هذا اليوم إلا بمشقة لزحمة النساء ، بل وصل الأمر إلى حدوث المنازعات بين الزوج والزوجة إذا منعها زوجها من الذهاب إلى السوق وقد يؤدي إلى الطلاق.⁷¹

ومن الأسواق التي كانت ترتادها النساء (سوق الشماعين) في مدينة القاهرة وهو السوق المتخصص ببيع الشمع ، وكانت حركة البيع تنشط فيه في شهر رمضان حيث تشتري الشموع بأنواعها، وكان وزن بعضها يصل إلى أكثر من قنطار حيث توضع على عجلة يجرها الأطفال للذهاب إلى صلاة التراويح.⁷² كان هذا السوق يتحول إلى سوق لنساء الليل اللاتي يُسمين (زُعيرات الشماعين) حيث يعرضن أنفسهن ويلبسن زيا مميزا لونه أحمر ،

وكان الذي يمر من السوق يجبر على الزنا أو أن يدفع مبلغاً من المال ! ،
وأما أصحاب الدكاكين فكانوا يمازحون بعضهم بعضاً بأسلوب يخرج عن
الأدب وأحياناً يمازحون النساء وربما بادرت النساء بالمزاح حال المساومة
للشراء ، وذكر ابن الحاج العبدري بأن أكثر الأسواق ازدحاما هو سوق
القماش.⁷³

(2) التسابق على المغالاة في الملابس كمؤشر على الترف الاجتماعي :

وهذه ظاهرة أخرى تسابقت فيها النساء وكانت الثياب تتعرض
للتغيير والتبديل تبعاً لاختلاف تصاميم الملابس من وقت لآخر أو ما يسمى
بصيحات الموضة في عصرنا الحاضر ، و بعض النساء كنَّ يخرجنَ عن
الشروط الشرعية حتى إن بعضهنَّ أحدثن في الثياب وجعلنها ضيقة وقصيرة
الأكمام ، و من طرف آخر بالغن في التباهي بقيمة الثياب والهيئة إظهاراً
للغنى وإشباعاً للكبرياء الطبقية حتى أن بعض الثياب يستهلك 320 ذراعاً ،
وكانت خياطة الثوب تتحدد على أساس وزنه ومن الحرف التي اتصلت
بالثياب حرفة الغسل والصقال (كي الثياب) .⁷⁴

وكانت النساء تغالى في غطاء الرأس وطريقة صناعته وتطريزه
بأعلى الأحجار الكريمة ولبس الخلاخل والأطواق والبقايب الذهبية المرصعة
بالجواهر وقد أورد لنا ابن حجر أمثلة لبعض النساء اللاتي غالين في المظهر
في كتابه الدرر الكامنة.⁷⁵ وفي مجال الزينة انتشرت الحفافة — إزالة الشعر
من الوجه والجسم — وكان يقوم بها فتیان تتراوح أعمارهم بين (10-12)
سنة وهذا لمن لا تذهب للحمام الجماعي .!!!.

(3) زيارة القبور وبدعها :

ومع أن زيارة القبور جائزة للعظة والاعتبار، لكن كثيرا من الناس اتخذ من زيارتها في المناسبات أماكن للهو، واللعب والنزهة، وصناعة الطعام، حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط الرجال بالنساء، حتى أصدر المحتسب أمرا بمنع النساء من الخروج إلى التربة (المقابر) أيام الجمع. وأشد ما تكون القرافات (المقابر) ازدحاما في الأعياد، حيث كانت النساء تركب الدواب في الذهاب والرجوع من القرافة، وهناك يجتمع الرجال والنساء فيمزحون ويغنون مما يؤدي إلى المعاصي، مما دعا بعض السلاطين إلى إصدار أوامر بمنع النساء من زيارة المقابر كليا.⁷⁶

(4) الحمامات والأعراس:

الحمام مؤسسة اجتماعية كان لها دورها في تلك الحقبة إذ إنها تدل على أن المجتمع الذي تكثر فيه الحمامات بأنه مجتمع يحب النظافة والطهارة، وهي ظاهرة إيجابية، كما أنها كانت مكانا للاستشفاء و أن دخولها يدل على شفاء الإنسان من مرضه رجلا أو امرأة، إضافة إلى كونها مكانا للإعلان عن مناسبات الزواج حيث يتوجه العروسان إلى الحمام مع الأهل والأصدقاء في موكب فرح وسرور وغناء في الرواح والمجيء، وبعض الحمامات كانت خاصة بكل جنس وبعضها يعد فترات خاصة لكل جنس، ثم أصبح الحمام مكانا للتنافس والتباهي لإظهار الأزياء مما أدى إلى ظهور مفاسد اجتماعية بسبب تغيب المرأة عن بيتها في الحمام لمدة طويلة انعكست على وظيفتها الأسرية ، ومع ذلك كان بعض الأزواج لا يتعرض لزوجته باللوم والتأنيب لأنه لا يستطيع أن يكلمها لأنفتها وتحكمها وهذه الظاهرة كانت

تشجيع عند الابتعاد عن الخط الخلقي الإسلامي، حتى أفتى بعض الفقهاء بالكرهية أو المنع أحياناً من ارتياد الحمامات للنساء لهذه الأسباب.⁷⁷

(5) دور غير المسلمين ومظاهر الفساد:

من الظواهر التي تشير إلى التردّي الأخلاقي في عهد بعض السلاطين الضعفاء في المجتمع المملوكي ظهور دور البغاء العلني بسبب فساد بعض السلاطين ، وتحديد مكان معروف لها وهو سوق الشماعين (بائعي الشموع) ، وتعيين وقت خاص وهو بعد منتصف الليل ، وكنّ يلبسن لباساً خاصاً ، وعرفت أولئك النساء باسم (زعيرات الشماعين) ولهنّ مشرفة تدبر شؤونهنّ تسمى (ضامنة المغاني) وكالعادة في كثير من الأمكنة والأزمنة كانت دور البغاء تحت إشراف غير المسلمين مستغلين تسامح المسلمين معهم ...!! ، فقد كان لليهود دورهم في عملية الإفساد العام من خلال إشاعة الزنا والخنا ، وشرب الخمر بين المسلمين ، وأما الأرمن النصاري فكانوا يملكون دور الدّعارة وأماكن بيع الخمر كذلك "حتى إن المرأة إذا تركت زوجها أو الجارية إذا تركت مواليتها أو الشاب إذا ترك أباه ودخل عند الأرمن لا يقدر أن يأخذه منهم أحد ولو كان ما كان".⁷⁸

(6) تدخل النساء السلبي في شؤون الحكم والسياسة :

من إحدى الظواهر السلبية في العصر المملوكي وبخاصة في القرون المتأخرة أي القرنين التاسع والعاشر تدخل النساء السلبي في تغيير القرارات السياسية من خلال التأثير على السلطان وذلك لأن سلاطين المماليك كانوا يحترمون نساءهم ومظهر ذلك تعظيمهن بالألقاب، مثل:

خوند، خاتون ، ومن الأمثلة على ذلك خوند زينب زوجة السلطان إينال (865هـ)⁷⁹ حيث كانت على جانب من "نفوذ الكلمة ووفور الحرمة في الدولة وطواعية السلطان لأوامرها"⁸⁰ حتى أصبح السلطان لا اختيار له معها⁸¹ ، و بلغ الأمر أن " صار لها نصيب وأمر مع السلطان في كل هدية ورشوة".⁸² "وصارت تدير أمور المملكة من ولاية وعزل" كما قال ابن إياس".⁸³

ولكن على الجانب الآخر كان هناك تدخل نسائي إيجابي ، ومن ذلك أن بعض نساء الأمراء كنّ يتوسطن بين السلطان وأمرائه في حل المشكلات كما فعلت زوجة السلطان الناصر محمد في رفع الظلم - عن الفلاحين - حيث قامت بإسقاط الضريبة التي تؤخذ على القمح".⁸⁴ وهذا الأمر لا شك سلاح ذو حدين فهو يظهر من جانب مكانة المرأة واحترامها .. ولكنه من جانب آخر هو وسيلة من وسائل الضغط على السلاطين من قبل زوجاتهم للإفساد أو الإصلاح. ولا شك بأن ذلك يدل على فساد إداري وضعف في شخصية السلطان ، مع الإشارة إلى احترام السلاطين والمجتمع عموما لتدخل بعض العالمات المحدثات مثل أسماء بنت الكمال (ت 904هـ) وغيرها حيث كنّ يشفعن ويتوسطن في أمور الخير⁸⁵.

المحور الرابع :

استجابة أهل العلم والفقهاء والدعوة

للظواهر السلبية في المجتمع المملوكي :

رافق تلك الظواهر المحزنة على كل المستويات حركة نشطة في وسط الفقهاء و علماء التصوف اتخذت أوجهها متعددة أحيانا بمعاونة بعض السلاطين الصالحين لحل هذه الأزمات. فلقد كان هذا العصر ثريا بالعلماء المتخصصين في جوانب الحياة وتلك ظاهرة لا نستطيع إنكارها ، ونظرة سريعة إلى كتب التراجم للقرنين الثامن والتاسع كافية لتوضيح ذلك ، ليس في وسط الرجال فحسب بل في الوسط النسائي وهو حصيلة تراكمية لها دفعتها الحضارية المستمرة والتي تكون راسخة مستمرة لا تظهر آثار الانكسارات عليها إلا بعد حين ، وقد ظهر هذا في أواخر الدولة المملوكية في القرن العاشر حيث قل عدد العلماء ، وقل عدد المدارس والمستشفيات والمؤسسات الأخرى بسبب الأوبئة والتراجع السكاني ، وقد تنوعت ردود أفعال المرحلة على مناهج العلماء في إصلاح آثار هذه الابتلاءات والكوارث وبخاصة الآثار النفسية والاجتماعية وتنوعت أشكال استجابة العلماء والتي سنجملها في أربعة مناهج أو محاور عمل دعوي للعلماء بين النساء في ذلك العصر كالآتي :

أولاً : انتعاش العمل الدعوي التربوي الإصلاحي.

ثانياً : العمل الطوعي الخيري.

ثالثاً : إنشاء المؤسسات الاجتماعية .

رابعاً: تأليف الكتب المتخصصة في جوانب الإصلاح.

خامساً : عصر العلماء الصوفية وجهودهم

سادساً : التخصص في التأليف للنساء

وتفصيل ذلك :

أولاً : انتعاش العمل الدعوي التربوي الإصلاحي :

ومظاهر ذلك أن العلماء قد بدأوا بمعالجة المشاكل النفسية والاجتماعية والسياسية من خلال الخطب ومجالس الوعظ التي تحاول أن تعالج آثار هذه المشكلات بربط الإنسان بالله أولاً، وتوثيق الصلة به من خلال العبادات عبر خطاب إيماني يرقق القلوب ويحييها ، ثم بنصح السلطان برفع المظالم وتخفيف الضرائب وإقامة العدل والمساواة.

ومن وسائله : الوعظ والإرشاد⁸⁶، والتربية الصوفية⁸⁷ للرجال والنساء⁸⁸، وإقامة صلاة الاستسقاء⁸⁹، والتجمع للدعاء والحث على الالتزام بضوابط الشرع استجابة لرضى الله وهذه أوبة فطرية يلجأ فيها الإنسان إلى الله عند الكوارث والحروب ، وإن لم ترسخها وتقويها جهود متظافرة فإن الناس يعودون مرة أخرى إلى ما كانوا عليه بعد زوال المؤثر وهي صفة بينها القرآن الكريم ((أولا يرون أنهم يفتون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون))⁹⁰ وهذه الحالة ليست من باب التعويض النفسي المجرد وإنما هي حقيقة فطرية مركوزة في النفس البشرية عند المسلمين وغيرهم مع فارق التصور والمنهج ، وأساليب التوجه إلى الله المنضبطة بالكتاب والسنة بعيدا عن الابتداع.

ثانياً: العمل الطوعي والخيري:

عندما عمت المصائب والنكسات وكثر الموت نشط المسلمون في العمل الخيري الذي لم يكتفِ برعاية الأحياء بل شمل الأموات كتهيئة الأكفان والتوابيت للفقراء والمجهولين، وسمي هذا المشروع بـ "سبيل التوابيت".⁹¹ وأنفق بعض السلاطين من أموالهم الخاصة على المحتاجين بعد إحصائهم فكان السلطان يلزم الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار والأثرياء - كل حسب قدرته أن - يطعم عدداً آخر بشرط أن يستمر الإنفاق على هذه الأسر لمدة ثلاثة شهور متتالية ، وكان هذا زمن الظاهر بيبرس (662هـ) وقد ساعد ذلك على حل الأزمة ، و تكرر هذا الفعل من سلاطين آخرين في سنة (766هـ) حيث وزع الطعام والخبز على الناس ومنعت الشحاذة ، وطُوبى الأثرياء بتوزيع الإعانات على جميع المستحقين وبيعت الغلال للفقراء بسعر رخيص.⁹²

وتم تدريب الطلبة على العمل الطوعي المنتج كما فعل الشيخ جمال الدين الشيرازي الشافعي الصوفي الذي جمع العلم والذكر حيث قسم طلابه إلى مجاميع للتدريب على حرفة مناسبة لكل مجموعة مثل: الغزل، النسيج، خياطة الملابس، تجليد الكتب ، النسخ والكتابة ، حتى يعودهم على الاكتساب والاكتفاء الذاتي بعد أن نضبت بعض منابع الدعم المالي للمدارس الشرعية.⁹³

ثالثاً: إنشاء المؤسسات الاجتماعية:⁹⁴

وقد نشطت الدولة والمجتمع في إنشاء المؤسسات المتنوعة لحل المشاكل التي عمت الأمة وتضافرت الجهود الشعبية والرسمية على ذلك ومنها :

1. إنشاء الزوايا والربط والخانقاهات: وقد لعبت دورا مهما في هذه الأزمات في استضافة المحتاجين والغرباء ، وتهيئة جو رحي لهم يعينهم على حمل المصائب ويوفر لهم الطعام والدواء والحمام للنظافة.
2. رباط الأرامل والمطلقات : وهو مؤسسة تعمل على العناية بالأرامل والمطلقات والقيام بشؤونهن وتربيتهن حتى يتزوجن ثانية ، وكانت تشرف على هذه المؤسسة العاملة المحدثثة زينب بنت أبي البركات البغدادية كما أشرنا سابقا.
3. دور البيمارستانات (أي المستشفيات) في معالجة المرضى و تجهيز الموتى بمطلقات الدفن من غسل وتكفين أو تابوت.
4. رباط المقعدين وذوي العاهات والأمراض الخطيرة: للعناية بهم وتهيئة الفرص لتعليمهم ، وقد كانوا يعزلون في أمكنة خاصة خارج المدن إذا كانت أمراضهم معدية كالمجذومين وغيرهم ، وهذا نوع من المؤسسات الخيرية في المجتمع الإسلامي، المملوكي وغيره.
5. المدارس :وتعد من المؤسسات الاجتماعية الرائدة لكفالتها الطلاب سكناً وإطعاماً وتعليماً ورعاية⁹¹.
6. صندوق القرض الحسن⁹²: وقد ابتكره رئيس أطباء القاهرة علاء الدين بن نجم الدين بن عبد الواحد حيث يقدم القروض الحسنة من رصيد قدره خمسة آلاف دينار خصصه لمن يحتاج من المرضى وغيرهم دون مفاضلة ومعاملتهم بالمساواة ، وهو ما يعرف في يومنا بتمويل المشروعات الصغيرة أو المتناهية في الصغر -microcredit- مع الفارق بأن ذلك المشروع كان يخلي من أية فائدة ربوية يحرمها الإسلام والتي تفرض في يومنا ولو كانت بمسميات مختلفة على الفقراء الذين يحصلون

على قروض صغيرة من بعض البنوك ومؤسسات التمويل ، مثل بنك غرامين أو بنك القرية في بنغلاديش ، والذي حصل مؤسسه الدكتور محمد يونس على جائزة نوبل للسلام لعام 2006 ، حيث يعفي البنك بعض الفئات من الفوائد لكنه يفرضها على البقية الغالبة ويحلل د. محمد يونس ذلك ، أما في العصر المملوكي فلم يكن لتلك القروض التي تعطى للفقراء فوائد ربوية تزيد من عبء الدين عليهم .⁹³

7. صندوق العلاج المجاني⁹⁴: وهو من ابتكارات رئيس أطباء القاهرة بهدف المعالجة المجانية وشراء الأدوية لتوزيعها مجاناً ، فكان إذا كلف الدواء أربعين ألف دينار فعلى الموسر أن يدفع ذلك بينما يخفض سعره إلى فلس واحدا للمعسر والفقير.

رابعاً: تأليف الكتب المتخصصة في جوانب الإصلاح :

بدءاً بإصلاح الإنسان ثم الأمراض الاجتماعية في الأسرة والمجتمع والكوارث ، فالعلماء لم يكونوا بمعزل عن الواقع ومشاكله ، والعالم الرباني هو الذي يحس بأنين الأمة وآلامها عند الكوارث والخطوب والتحديات التي تواجهها لذلك ، وهكذا كان علماءنا من من الفقهاء والصوفية الذين لم يتوانوا في التأليف لتشخيص الأدواء ووصف العلاج لشتى المشكلات الروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية مما يعطينا صورة حية لم تكشف عنها كثير من الكتابات التاريخية التي تميل إلى سرد الأحداث دون تحليل اجتماعي لتلك المجتمعات المسلمة ، ومن أنواع هذه المؤلفات:

1. كتب التزكية: التي تعمل على إيقاظ النفوس وتحريك الإيمان الإيجابي وليس السلبي الذي يدفع الإنسان إلى العزلة ، كتب تسعى لأن

يكون المؤمن إيجابيا في مجتمعه ، بتبيين الفضائل والردائل بخطاب التربية الصوفية الذي يهدف إلى التذكير بالآخرة وحث الناس على الأوبة إلى الله وحصر المعاصي والمنكرات والتنفير منها . مثل : كتاب المواعظ لابن الرسام الحموي و(قمع النفوس) و (تأديب القوم) لتقي الدين الحصني وغيرها .

2. كتب المواعظ لتذكير الأمة من النساء و الرجال والكبار والصغار:

وذلك بإعطاء القدوة من خلال الأمثلة التي تضرب ، وغير ذلك ، مثل كتاب "مناقب المربيّات" للإمام تقي الدين الحصني الشافعي (ت 829هـ) وكتاب "نصيحة النساء المسلمات" لابن الرسام الحموي (844 هـ).

3. كتب الفكر السياسي : التي ترصد الواقع السياسي ومآلات السياسات

الخاطئة التي تؤدي إلى الخراب الاقتصادي والظلم السياسي مثل كتاب : "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي.

4. كتب اقتصادية : تتناول المشاكل المعيشية والأزمات الاقتصادية

واقترح الحلول لذلك مثل : "كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة" للمقريزي.

5. فضلا عن كتب الفقه والحديث والتفسير بصورة عامة بما اشتملته من الأبواب التي تسهم في إمداد المجتمع بثقافة شاملة تعين على الإصلاح.

خامسا : عصر العلماء الصوفية وجهودهم :

تميز القرنان الثامن والتاسع الهجريان بكثرة العلماء الذين اختاروا طريق التصوف منهجا في السلوك ، وهذه ظاهرة طبيعية في تلك الظروف التي عمت الأمة بالابتلاءات والمحن المتنوعة كالموت الذي يصيب أعدادا كبيرة بسبب الأوبئة والأمراض المعدية والقحط إضافة إلى انغماس كثير من

سلاطين الممالك وأتباعهم في الترف والسياسات الاقتصادية القاصرة ، ثم استغلال الأتباع الظروف للكسب غير المشروع ولو على حساب الأمة مع أنهم كانوا إذا عم الكرب أقاموا الصلوات والدعاء ولكن سرعان ما ينسون ذلك: ((ثم يعودون لما نهوا عنه..)) الآية⁹⁵. وقد علق المقرئزي⁹⁶ على التناقض الذي يعيشه السلاطين عندما نادى السلطان الناس بالخروج من المظالم ، والصوم ثلاثة أيام عسى أن يرفع الله الكرب، فقال: " هذا والحكام والولاة على ما هم عليه كما قال الشاعر : لا تنه عن خلق وتأتي مثله... عار عليك إذا فعلت عظيم.

لذلك أثر كثير من العلماء القرب إلى الله والنصح للأمة والحكام ورفض الوسائط والرشوة وأنواع الفساد الإداري . وقد كانت هذه المرحلة زاخرة بمئات بل آلاف العلماء منهم القدوات . وبمسح أولي لكتب التراجم والمؤلفات والموسوعات التي أرخت لتلك الفترة سنجد نماذج عظيمة تبقى قدوات في كل حين وسنذكر نماذج مختارة من الذين جمعوا بين الذكر والفكر والعمل والدعوة والتأليف ونصح العباد ، كان منهم مواكب كلما مات سيد قام سيد يعطون للأمة نموذج العالم الوارث القدوة ومن هؤلاء:

1- الشيخ أبو بكر بن عبد البر بن محمد الموصلي الشافعي (ت796هـ)⁹⁷

بقية علماء الصوفية وكان يلقب بـ"جنيد الوقت" ، وقد عمل بالحياسة ويشغل بالعلم وسلك طريق التصوف ، كثير النصيحة للأمرء وكان نواب الشام يستشيرونه فينصح لهم .

2- الشيخ برهان الدين أبو محمد إبراهيم بن موسى الأسنائي

(ت810هـ)⁹⁸ بنى زاوية في ظاهر القاهرة وجعلها مدرسة ومأوى للطلاب وكان يحسن إليهم ويرتب لهم ما يأكلون ويعمل على تمويل هذه

المدرسة بجمع الأموال من أهل الخير وكان يهتم بالطلبة والواردين إلى المدرسة من خارج القاهرة لأهمية إعداد العلماء لكافة النواحي والأماكن، وكان متعبداً متواضعاً بشوشاً لين الجانب أحبه الناس.

3- القاضي عماد الدين الكركي العامري (ت 801هـ) ⁹⁹ استقدمه الظاهر

برقوق وولاه قضاء الشافعية في القاهرة وكان صالحاً نزيهاً لا يقبل شفاعة أهل السلطة والمتنفذين ، فوشوا به إلى السلطان فنقله إلى القدس وجمع له الخطبة بالمسجد الأقصى وإدارة المدرسة الصلاحية فيها وكان يقدم الطعام للناس في كل وقت ولقب (بكبير القدر) كناية على كرمه.

4- الشيخ جمال الدين الشيرازي العجمي الشافعي الصوفي (ت 881هـ) ¹⁰⁰

الإمام القدوة المسلك (المربي والمرشد) العارف ، كان من كبار أهل العلم والدين وكان على طهرٍ دائماً وكان على طريقة الذكر القلبي لا اللساني ، وكان أتباعه من كبار العلماء مُلتفتين حوله على قلب رجل واحد في طاعته والانقياد إليه ، منظماً في عمله حيث قسم تلاميذه إلى أقسام: فالعلماء والطلبة يشغلهم بالكتابة ومن دونهم كل بحرفته ما بين غزل، ونسج، وخياطة، وتجليد كتب وكان يؤدي واجب النصيح للحكام وغيرهم.

5- السيد علي بن السيد بهاء الدين الشيرواني الحنفي الصوفي الخلوتي (ت

868هـ) ¹⁰¹ وهو من أهل باكو في أذربيجان لازم الشيخ صدر الدين

الخلوتي اجتمع عليه الناس حتى زادت جماعته على عشرة آلاف مُريد ، ونشر الخلفاء من جماعته للدعوة في أطراف الممالك وهو أول من سنَّ ذلك وكان يقول بجواز إكثار الخلفاء الدعاة لتعليم الناس الآداب وأما المرشد فلا يكون إلا واحداً.

- 6- أقضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن محمد بن محمد مفلح الحنبلي (ت884هـ) ¹⁰² الإمام البحر الهمام العلامة القدوة الحافظ المجتهد الأمة شيخ الإسلام سيد العلماء والحكام ذو الدين المتين والورع واليقين شيخ العصر وبركته كان مرجع الفقهاء والناس والمعول عليه في الأمور نزيها مهابا في قضائه له مؤلفات في الفقه الحنبلي.
- 7- الشيخ إسماعيل بن محمد بن عيسى المغربي الفاسي المالكي المعروف بزروق (ت899هـ) ¹⁰³ الإمام العلامة الصوفي وهو عابد بحر يغترف منه وعالم بالولاية، برع في الفقه والتصوف والأصول والخلاف، وحفظ القرآن، أقام بالقاهرة نحو عشر سنوات أخذ الحديث فيها عن السخاوي شرح كثير من كتب التصوف وله "شرح أسماء الله الحسنى" جمع فيه بين طريق علماء الظاهر والباطن وله "قواعد الصوفية" حرر فيه هذه القواعد وأصلها بمنهج سني بعيدا عن الموهومات والمغالاة.
- 8- الشيخ سيف الدين محمد بن قطلوبغا البكتمري القاهري الحنفي (ت881هـ) ¹⁰⁴ الإمام العلامة لزم كمال الدين بن الهمام وانتفع به وبرع في الفقه والأصول والنحو وغير ذلك . كان محقق الديار المصرية مع سلوك طريق السلف والعبادة والخير وعدم التردد إلى أبناء الدنيا والانقباض عنهم.
- 9- الشيخ أبو بكر محمد بن عبد المؤمن الحسني الحصري الحلبي الشافعي (ت829هـ) كان محدثاً صوفياً فقيهاً له كتاب (كفاية الأخيار) في الفقه الشافعي و (قواعد الفقه) ، و له كتاب في التفسير من الفاتحة إلى الأنعام (في مجلد ، و (شرح صحيح مسلم) ، كان صاحب تصوف وتكشف وله مؤلفات في التصوف مثل (سير السالك) و (وقمع النفوس)

و (تأديب القوم) في ثلاثة مجلدات يحارب البدع التي تسلت إلى التصورات والسلوكيات عند "المستصوفة" كما يسميهم ويقصد بهم أدعياء الصوفية ، كما يوجه كتاباته للمجتمع عامة والمجتمع النسائي خاصة وكان يلقي الدروس الخاصة للنساء وله في ذلك كتاب: (سير الصالحات ومناقب المربيات) .

10- الشيخ أحمد بن أبي بكر أحمد الحموي الحنبلي القادري قاضي القضاة له كتاب في المواعظ على طريقة شيخه ابن رجب الحنبلي ، وتخصص في وعظ النساء وقد تنقل مرات بين مصر والشام ، وله كتاب (نصيحة النساء المسلمات وذكر العابدات منهن والموفقات) .

سادسا: عصر التخصص في التأليف للنساء :

تميز القرنان الثامن والتاسع بتفرغ بعض العلماء لوعظ النساء والتأليف في القضايا المتعلقة بالمرأة في الأسرة والمجتمع ، ولعل هذه الظاهرة رافقت موجة الترف التي كانت عليها مصر والشام أول عصر المماليك وفي عنفوان قوتهم ، وقد رصد لنا العلماء ذلك في كتبهم أمثال: ابن حجر حيث ترجم للمحدثات والفتيات ونساء السلاطين والمغنيات ليعطينا صورة عن طبيعة المجتمع وذلك في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) كما ذكرنا سابقا ، وما بسطه المقرئ في كتابه السلوك ، وكتاب المواعظ والاعتبار ، وكتابه إغاثة الأمة وفيه مادة ثرية في التاريخ الاجتماعي ، وفي نفس الوقت رصد لنا المؤرخون هذه الظاهرة بعد حصول الكوارث في المرحلة الثانية من دولة المماليك وهي مرحلة "الأفول" كما يسميها ابن خلدون¹⁰⁵ لتسرب بعض الظواهر المخالفة لسنن الله في

المجتمعات من شيوع الظلم السياسي في الغالب، والأمراض الاجتماعية المخالفة للشرع، والفساد الإداري في إدارة المجتمع، وانتشار الغش والرشوة في بناء المشروعات أو التنافس على المناصب بدفع الرشا حتى ألف العلماء كتباً في هذا الموضوع مثل كتاب (الرشا والبرطلة)¹⁰⁶.

ولما كانت الأسرة هي لبنة المجتمع والمرأة هي محور هذه الوحدة الاجتماعية المهمة لذا فقد انصب جهد العلماء على العناية بها تربوياً وتثقيفياً وعبادياً لأن أي خلل في الأسرة من الرجل أو المرأة فإن المجتمع سيتأثر بذلك ابتداء بالأولاد وانتهاءً بالظواهر السلبية التي تشيع في المجتمعات.

لذا فقد تخصص بعض العلماء في ذلك العصر لوعظ النساء دون الرجال لأهمية دورهن التربوي في البيت والمجتمع وعملوا على تأليف الكتب التي تعالج القضايا الاجتماعية وإلقاء المحاضرات والدروس الوعظية التربوية التي اتبع فيها كل عالم أسلوباً خاصاً به. ومن هذه المؤلفات على سبيل المثال:

1- سير الصالحات و مناقب المربيات : لتقي الدين محمد الحصني

الحسيني الحلبي (ت 829هـ)¹⁰⁷ وقد تخصص في وعظ النساء وقد جمع في منهجه بين التراجم والتزكية حيث تكلم عن الأخلاق والسلوكيات المهلكات المفسدة للمجتمع وبخاصة المجتمع النسائي، ووظف تراجم النساء لخدمة هذا الموضوع من خلال القصص والأخبار الواردة فيها لتثبيت المعاني الخيرة من جانب ومحاربة الأخلاق الفاسدة والذميمة، وضرب الأمثلة، ومع أنه اتسم بشدته في الوعظ وحمله على الحكام في زمانه أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ولكن الناس كانوا يحبونه لصدقه بالحق، فضلاً عن حسن معشره وروح الدعابة التي فيه، وحتى نتعرف

على الخطاب الوعظي المتخصص في ذلك الوقت لنا أن نسرد محتويات هذا المؤلف المهم الذي قسمه مؤلفه رحمه الله إلى :

● مقدمة تتضمن بيان أن التكليف تشترك فيه النساء والرجال والخطاب الشرعي موجه إليهما "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات... الآية" وبين سبب تأليف الكتاب بأنه شيوع بعض الظواهر السلبية بين النساء التي تحتاج إلى علاج قائلاً : " فأردت في هذه الورقات أن أذكر جملة يسيرة من سير الصالحات لعل بذكر ذلك يحصل التقفي - الاقتداء - خلفهنّ فإن ذكر أحوالهن لاشك ولا ريب من المشوقات وباعث على الحقوق بهن لمن تسمع مما تحقن به من الكرامات".

● وقسم ثان ذكر في تراجم الصالحات مبتدئاً بالسيدة فاطمة ، ثم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم والصحابيات ، والتابعيات ، والصالحات ، وهي من (ورقة 6-47) من المخطوط.

● وقسم ثالث من (الورقة 46 - 83) . تكلم فيه عن المحبة في القرآن وأنواعها وعلاماتها ، وثنى ببيان الاسباب المهلكات وأنواعها .

2- نصيحة النساء المسلمات وذكر الموفقات منهم والعبادات : لابن

الرسام الحموي الحنبلي القادري (ت844هـ) وكتابه هذا محاضرات عالج فيها المؤلف الظواهر السلبية التي شاعت في المجتمع المصري ، ألقاها على النساء في عدة مساجد في القاهرة ، كالأزهر وجامع الفكهانيين وجامع السيدة نفيسة وغيرها . ومنهج ابن الرسام في كتابه الجمع بين التراجم وبيان حقوق الزوجة على الزوج ، وحقوق الزوج على الزوجة ، وفضل طاعة الأزواج ، والأحكام التي رخص الله فيها للنساء.

- 3- إسبال الكساء على النساء للسيوطي (ت 911هـ)¹⁰⁸
 - 4- تحفة الجلساء بروية الله للنساء (للسيوطي) (ت 911هـ)
 - 5- مرشد المتأهل لمؤلف مجهول . وهذا المخطوط يعرض لنا رصد قضية اجتماعية مهمة وهي الزواج وتأهيل الشباب المقبل على الزواج لأن فيه علاج للقضية الاجتماعية وإرشاد المقبل على الزواج ابتداء من التفكير بالزواج وحتى ما بعد تأسيس الأسرة مما يعطينا دليلا عمليا على إدراك علمائنا لحركة المجتمع والمؤثرات .
- وقد اقتصررت على هذه المؤلفات لأنها في عصر المماليك وإلا فقد أحصى لنا الدكتور صلاح الدين المنجد في مقالته (ما ألف عن النساء) المنشورة في مجلة المجمع اللغة العربية في دمشق مجموعة كبيرة ، وما استدركته عليه مما لم يذكرها في مقالته ، وهذا مما يدل على أهمية هذا النوع من التأليف كما ذكر ذلك الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في مقالته عن (نساء القاهرة في العصر المملوكي).

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه السياحة مع موضوعات هذا البحث لبيان الظواهر الاجتماعية في الوسط النسائي في العصر المملوكي ودور العلماء في علاجها يؤكد الباحثان النتائج التالية :

1. أن المنهج التربوي الروحي هو منهج سني سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع له أصوله وقواعده ليحيطه بالمشروعية لكي لا يخرج إلى مغالاة إفراطا أو تفريطا .

2. أن الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ساروا على هذا المنهج ، وهذا ما يحدد لنا سنية أي سلوك صوفي من عدمه ، ل يتميز الصوفي المتبع للسنة عن أدعياء الصوفية الذين يغالون في طرائقهم.
3. ويتضح أنه بعد أن انتشر الإسلام خارج الجزيرة ، ظهرت بعض التجارب المتأثرة ببعض العادات والتصورات غير الإسلامية مما دفع جهابذة العلماء إلى التخصص بتربية الأمة ليحفظوا الأمة من الذوبان في التزلف المادي، فوضعوا علما جديدا باسم (علم التصوف) مشتق من الصفاء والتصفية ونشأت مدارس ومناهج مثلها مثل المدارس الفقهية والفكرية .
4. أن المنهج الصوفي كأى منهج معرفي آخر تعرض لاجتهادات خرج بعضها إلى مغالاة ومخالفة بينما الإسلام يعلمنا الوسطية معتمدين على قوله " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم.
5. كان هناك اهتماما خاصا من قبل العلماء بالمرأة المسلمة ورعايتها وإقامة المؤسسات للعناية بها وبخاصة زمن الكوارث أو انتشار الفساد الأخلاقي في المجتمع .
6. كشف لنا البحث عن أمثلة كثيرة للاهتمام المبكر بالعمل الطوعي والإغاثي والمؤسسي وتطوره وتنوعه بحسب طبيعة المشكلات التي تواجه المجتمع المسلم .
7. هناك ضرورة للكشف عن تجارب العلماء الصوفية ودورهم في قيادة الأمة في شتى المجالات الدعوية والجهادية والخدمة الاجتماعية والنصح للأمة، والتعريف بمناهجهم التي لم تختلط بإغرابات تخرج على الضوابط

الشرعية. وضرورة نشر الأعمال المفيدة وتحقيق تراث العلماء الصوفية الذين يضبطون الذوق الروحي بالشرع ويتذوقون الشرع بالسنة كما قال صلى الله عليه وسلم وجد حلاوة الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

- 1- مناوي زين الدين محمد بن عبد الرؤوف، تحقيق محمد أديب الجادر، الكواكب الذرية في تراجم السادة الصوفية، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت - لبنان، 1999، ج 2/1 : 571
- 2 - المصدر نفسه.
- 3 - المصدر نفسه 228/2:1-230.
- 4 - المصدر نفسه ص: 547
- 5- شرف محمد جلال، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب (بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، دون طبعة 1404هـ - 1998م : 241 - 242).
- 6- ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع دون تاريخ وطبعة) : 34/6 - 35 .
- 7 - السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، دون تاريخ وطبعة) : 12 / 148.
- 8 المصدر نفسه : 12 / 114.

- 9 المصدر نفسه : 12 / 131.
- 10 ابن العماد الحنبلي ، المصدر السابق : 5 / 286 .
- 11 المصدر نفسه : 6 / 168 - 170 .
- 12 المصدر نفسه : 7 / 188 - 189 .
- 13 المصدر نفسه : 7 / 252 - 253 .
- 14 البخاري محمد بن إسماعيل (ت256هـ) ، الجامع الصحيح، كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء (تركيا ، المكتبة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، 1399هـ - 1979م) : 6 / 145
- 15 انظر ابن كثير عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ، البداية والنهاية ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، القاهرة ، دار الحديث (1414هـ - 1994م) ج 13/359، 355 . وانظر قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مصر ، دار المعارف ط2 (1403هـ/1984م) : 29 .
- 16 انظر محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي "المماليك" ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط2 (1405هـ - 1958م) : 7 / 32 ، و انظر حسن السعداوي: "دولة البرين والبحرين" ، القاهرة بحث في المجلة التاريخية المصرية ، مجلد: 12: (1378هـ/1967م) : 152.
- جوزيف نسيم يوسف : "علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق صبح الأعشى" ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ،نخبة من الأساتذة، القاهرة ،وزارة الثقافة، المكتبة العربية رقم 183 ، 1393هـ - 1973م (191، 187، 186، 163 / انظر ابن خلدون :الرحلة : 345 - 346.
- 17 المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (1420هـ/2000م) ط1، 98.

18 دكتور قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، مصر (1403هـ/1992م) ط2: 22

19 انظر: أستاذنا الدكتور أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية (1392هـ/1972م : 188/187/5).

20 ابن خلدون: التعريف برحلة ابن خلدون ، ، بيروت دار الكتاب اللبناني ، دون طبعة (1399هـ/1979م): 304، 351 .

21 د. سعيد عبد الفتاح عاشور، كتاب صبح الأعشى، مصدر التاريخ مصر، في العصور الوسطى، مجموعة بحوث ندوة أبو العباس القلقشندي (نشر الجمعة التاريخية المصرية، القاهرة (1392هـ/1972م): 25 ، مصر ،مجمع البحوث الإسلامية سلسلة البحوث الإسلامية ، السنة الثالثة عشر-الكتا -محمد كامل الفقي ، الأزهر وأثره في الأدبية 7

22 انظر ابن خلدون المصدر السابق : 305 ، وانظر محمد سالم النباهين، التربية عند المماليك، رسالة الماجستير كلية التربية جامعة طنطا ، مصر ، على الآلة الكاتبة: 90.

23 ابن الرسام أبو بكر أحمد بن مجمل الحموي القادري ننصيحة النساء المسلمات وذكر العابدات منهن والموفقات ، دراسة وتحقيق د. ليث سعود ، تحت الطبع: 48. وانظر ابن العماد الأصبهاني، شذرات الذهب: 105/6، 120-121، وانظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة: 182/1-184

24 القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية ، 348/3، 363، 434، أو انظر: نصير السعداوي، مصدر سابق: 108-120

25 محمد عبد الله عنان ، أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، نخبة من الأساتذة ، مصر ،وزارة الثقافة ، المكتبة العربية ، العدد138 الطبعة

- الأولى (1393هـ - 1973م) : 25 ، 26 . وانظر الدكتور مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب: 731-736.
- 26 مقدمة لسان العرب طبعة دار المعارف بمصر تحقيق عبد الله علي - الكبير وآخرون بمصر 1401هـ-1981م ص 7، 8 .
- Franz Rosent , Ahisory of muslm historyiography, 27**
E.J.Brill,Leiden :P.679-680 32 ترجمة أحمد صالح العلي ،
نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة، بغداد نيويورك 1963
- 28 انظر : مصطفى الشكعة ، مصدر سابق: : 679-680
- 29 انظر : مصطفى الشكعة ، المصدر نفسه: 742-744 . وانظر ابن العماد :
المصدر سابق 6/160. وفرانز روزنثال، المصدر السابق
- 30 أبو داود السجستاني، مختصر سنن أي داود للحافظ المنذري، نشر دار المعرفة، بيروت تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي،: 1/ 161
- 31(باب ما جاء في حق المرأة على زوجها) الإمام البخاري، الجامع الصحيح، نشر المكتبة الإسلامية، تركيا (1299هـ - 1979م) ط1: 145/6.
- 32 الدكتور ليث سعود حاسم، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها، نشر دار التجديد، كوالالمبور (1423هـ - 2002م) ط1: 20.
- 33 انظر البخاري: الجامع الصحيح، باب ضرب الخيمة في المسجد: 119/1.
- 34 الكتاني: التراتيب الإدارية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت: 217/4 - 220.

- 35 البخاري: 24/1، انظر مسلم بن الحجاج، الصحيح: كتاب البر والصلة، نشر البابي الحلبي، القاهرة (1398هـ - 1978م) حديث رقم (4768)
- 36 انظر ابن سعد، "الطبقات"، دار الشعب القاهرة: 327/8
- 37 دكتور ليث الرعاية الاجتماعية: 62 - 69.
- 38 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة (1385هـ - 1966م) ط2: 903/4.
- 39 انظر ابن العماد، الشذرات: 208/6.
- 40 المصدر نفسه: 54/7، وكانت بارعة في الخط وتعطي الإجازة في ذلك.
- 41 المصدر نفسه: 204 / 7.
- 42 ابن العماد، الشذرات: 280 / 6.
- 43 نفس المصدر والصفحة. وانظر ابن حجر، أنباء الغمر 77/2.
- 44 نهاية النهاية في طبقات الشعراء: 1 / 310.
- 45 السخاوي: الضوء اللامع 106/12 - 107.
- 46 مشهور حسن آل سلمان/ مصدر سابق: 102.
- 47 المصدر: 103.
- 48 ابن الرسام، نصيحة النساء المسلمات: 48.
- 49 ابن حجر، الدرر الكامنة، 183/1 - 184.
- 50 مشهور بن حسن آل سلمان: مصدر سابق: 34.
- 51 نفس المصدر والصفحة
- 52 نفس المصدر: 38.
- 53 نفس المصدر: 39-44.

- 54 المصدر نفسه : 44.
- 55 المصدر نفسه : 46.
- 56 المصدر نفسه : 99.
- 57 مشهور حسن آل سلمان : مصدر سابق: 127.
- 58 نفس المصدر والصفحة.
- 59 السخاوي الضوء اللامع: 51/12.
- 60 مشهور آل حسن سلمان: 128.
- 61 نفس المصدر والصفحة
- 62 شذرات الذهب: 6 / 354.
- 63 مشهور حسن آل سلمان: 127.
- 64 أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، د. سعيد عبد الفتاح عاشور: 571.
- 65 انظر أحمد شلبي، مصدر سابق: 187/5-188 وانظر: قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك: 146-147.
- 66 انظر المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، مكتبة وانظر: قاسم: عصر سلاطين المماليك: 54، 55. انظر قاسم عبد قاسم: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية: 193/3.
- 67 انظر المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، مكتبة الثقافة الدينية، مصر (1420هـ - 2000م) ط1،: 54، 55، 64، 66، 88، 89، السلوك: 805/1-836
- 68 انظر: ابن الحاج أبو عبد الله محمد العبدري الفاسي (ت737م) المدخل إلى الشرع الشريف، القاهرة (1348هـ/1927م): 44، وانظر: دكتور قاسم عبده قاسم، مصدر سابق، 41.

69 الدكتور قاسم عبده قاسم، مصدر سابق: 96

70 المصدر نفسه: 43

71 الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: نساء القاهرة في عصر سلاطين المماليك، بحث في الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (1379هـ/1969م) وزارة الثقافة، مصر (1391هـ/1971م): 572/2-574. وانظر قاسم عبده قاسم، عصر المماليك: 126-127. وانظر قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر المماليك، الموسوعة الاجتماعية: 206-207

72 ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة (1375هـ/1966م) ط2: 8/1، 95:2. وانظر 73 دكتور قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر المماليك: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر: 219-220، وانظر: المقرئزي: كتاب السلوك، وزارة الثقافة (780/4)

74 انظر موسوعة الحضارة العربية الإسلامية: 364/361/3، وانظر موسوعة الحضارة العربية، د. قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر لحياة اليومية: 204./203/3

75 قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك: 43، 79 و 139-140. وانظر المقرئزي- السلوك: 641-640/2. وانظر المقرئزي: السلوك: 204.-203/3

76 انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، 305-304/7.

77 انظر: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، نساء القاهرة، نقلا عن ابن تغري بردي، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة: 568./2

- 78 انظر السخاوي الضوء اللامع: 54/12-55.
- 79 انظر دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور المصدر السابق: 569.
- 80 نفس المصدر في الصفحة وانظر: ليث سعود حاسم، نصيحة النساء، 53.
- 81 موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المرأة في الحضارة العربية، 327
- 82 انظر أبي عبيدة مشهور بن آل حسن سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت (1414هـ/1994م). ط1: 104-105.
- 83 انظر المقرئزي، السلوك: 832، وابن العماد، الشذرات: 7/7، 203/70، 198، 238، 329، 262..
- 84 انظر ابن العماد: نفس المصدر 513/7، 115/70، 122، 228، 230، 248، 331، 235.
- 85 نفس المصدر، 7/7.
- 86 انظر السلوك: 722/7
- 87 سورة التوبة: 126.
- 88 المقرئزي: السلوك: 827/1.
- أنظر المقرئزي: إغاثة الأمة: 51، وانظر: قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك: 160-161
- 89 انظر ابن العماد: الشذرات: 331/7
- 90 انظر المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية: 367/3، 368، 369.
- 91 انظر ابن العماد: الشذرات: 2/7-3، ترجمة برهان الدين الأبناسي (ت801هـ) بنى مدرسة وكان مربيا للطلبة بجمعهم على النفقة ويرتب لهم ما يأكلون ويسعى لهم في الرزق.

- 92 انظر ابن العماد: الشذرات: 346/6
- 93 تقرير غرامين بنك البنغلاديشي السنوي لعام 2005 (**Grameen Baks Annual Reporte 2005**)، وتقرير إخباري في نشرة الأخبار لقناة الجزيرة الفضائية بقطر بتاريخ 2006/12/10 والذي ضم حواراً مع الدكتور محمد يونس مؤسس ومدير مجموعة شركات غرامين البنغالية التي اشتهرت عالمياً بمشاريع الإقراض الخاصة بالفقراء، والذي يؤكد فيه على اعتباره الفوائد البنكية المفروضة على قروض الفقراء حلالاً وليست كالربا المحرم خلافاً لما سن عليه القرآن وإجماع العلماء.
- 94 نفس المصدر والصفحة.
- 95 الأعراف: 166.
- 96 السلوك لمعرفة دول الملوك: 822./1
- 97 ابن العماد: الشذرات: 348/6
- 98 نفس المصدر: 3-2/7
- 99 نفس المصدر: 4-3/6
- 100 نفس المصدر: 331/7
- 101 أنظر ابن العماد: الشذرات: 309-308/7
- 102 نفس المصدر: 339-338/7
- 103 نفس المصدر: 364-363/7، وانظر الدكتور جمال بغدادى: ملامح التجديد في الفكر الصوفي عند الشيخ أحمد زروق، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 23 لعام 2001
- 104 نفس المصدر: 333-332/7
- 105 ابن خلدون: المقدمة: 556-553/2

- 106 كتاب طببعته وزارة الأوقاف الكويتية ضمن نشریات الموسوعة الفقهية.
- 107 مخطوط وهو في طور التحقيق وقد حصلت منه على نسختين.
- 108 تحقيق ونشر دار الكتب العلمية، بيروت (1405هـ-1984م).